منهج سيبويه (ت١٨٠هـ) في ترتيب الأبواب النحويّة في الكتاب

البحث مستل من أطروحة دكتوراه

الكلمة المفتاح: منهجية سيبويه

أ.م.د. غادة غازي عبد المجيد **م .م .نوفل اسماعيل صالح**

ghadaghada33@yahoo.com Naofal19@yahoo.com

جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم اللغة العربية

الملخص

يحاول هذا البحث أن يبين المنهجية التي اتبعها سيبويه في ترتيب أبواب كتابه، وبعد عرض آراء الدارسين لمنهج سيبويه في التبويب وجدنا أنهم منقسمون على فريقين، فريق يثبت أنّ سيبويه كان له منهج مقصود في ترتيب الأبواب النحوية، وله أدلّة على ذلك، وآخر يرى أنّ منهج سيبويه يعتريه الغموض، وفيه خلط أحيانًا، وهذا الفريق ينفي أن يكون للكتاب منهجٌ مقصودٌ. وقد خلص الباحثان إلى ضرورة أن يتبنّى الدارسون القول بوجود منهج له غايات محددة في ترتيب الأبواب النحوية على وفق أدلة اعتمدها البحث. والله أعلم.

المقدمة

تفاوت النُحاة في مناهج تبويب كُتبهم، فمنهم من رتبها بحسب الوظيفة النحوية، فإذا ابتدأ بالمُبتدأ تبعه الخبر ونواسخه، وإذا تحدّث عن الفعل أتبعه بالفاعل ثم أردفه بمتعلّقات الفعل الأخرى، ومنهم من رتّب مصنّفاتهم حسب العلامة الإعرابية رفعًا ونصبًا وجرًا، ومنهم من بوّب كتبه بحسب العمدة والفضلة، إلى غير ذلك من التقسيمات الأخرى.

وقد بدا للباحثين أنّ سيبويه رتّب كتابه بحسب الوظيفة النحوية، إذ ابتدأ كتابه بالأفعال ومتعلّقاتها، وقد قصر الباحثان جهدهما على آراء الدارسين حول وجود منهج للتبويب عند سيبويه، فقد انقسموا على فريقين، فريق أثبت أنّ لسيبويه منهجًا مقصودًا في ترتيب أبواب كتابه، وآخر نفى أنْ يكون للكتاب منهجٌ مقصودٌ في هذا الترتيب، وقد رجّح الباحثان من هذا إلى ترجيح مذهب القائلين بوجود منهج قصده سيبويه في التبويب، ثم خلص البحث إلى نتائج مفادها أنّ سيبويه وضع كل باب في محله وكتابه سلسلة مترابطة لا يمكن اقتطاع حلقة منها. والحمد لله على نعمائه وجزيل آلائه.

توطئة:

إنّ المتأمل في كتب النحو يجد أنّ منها ما أُلّف في موضوع خاص، مثل كتب حروف المعاني، وكتب الجمل، وكتب العلل ونحوها، ومنها ما ألّف في دراسة قواعد العربية عامة، والناظر في كتب التأليف العام، يمكن له أنْ يصنّفها إلى مجموعاتٍ بناءً على مناهج تأليفها، وطرق ترتيب أبوابها على النحو الآتي:

أولًا: ترتيب الموضوعات بحسب الوظيفة النحوية للكلمة في التركيب:

تنعقد الأبواب في هذا النوع من الكتب على أساس الوظيفة النحوية التي تؤدّيها الكلمة في الجملة أو التركيب، فالكلمات في الجملة العربية تقع مبتدأً، وخبرًا، وفاعلاً، ومفعولًا، وحالًا، وتمييزًا، ...، وتُرتّب أبواب الكتاب بناءً على ذلك، مع تناول موضوعات أخرى ممهّدة، أو مكمّلة لتلك الأبواب، وهذه الطريقة أشهر مناهج التأليف وأكثرها استعمالًا في كتب النحو العربي.[١]

وأقدم كتاب اتّبع هذه الطريقة في التأليف كتاب سيبويه، ثمّ تلاه المقتضب، كما سنفصّل القول في ذلك إنْ شاء الله تعالى.

ثانيًا: ترتيب الموضوعات بحسب نوع الكلمة:

من النحويين مَنْ رتّب كتابه على أساس نوع الكلمة، فجعل بابًا لموضوعات الاسماء، وآخر للأفعال، وثالثًا للحروف، وختم الأبواب بالمسائل المشتركة بينهما، وأشهر كتاب سار على هذا النهج كتاب المفصّل للزمخشري (ت ٥٣٨هـ).

ثالثًا: ترتيب الموضوعات بحسب حركة الإعراب والبناء:

ظهرت ملامح هذا المنهج في مؤلّفات ابن السّراج.

رابعًا: ترتيب الموضوعات بحسب العمدة والفضلة:

اعتمد بعض النحويين على تقسيم الكلمات على عُمَدٍ وفضلاتٍ، في ترتيب موضوعات النحو في كتبهم، ومنهم السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه همع الهوامع.

بعد هذا الايجاز نخلص إلى أنّ ترتيب الموضوعات النحوية بحسب وظيفة الكلمة في الجملة، أكثر مناهج التأليف استعمالًا، كما أنّه أكثرها توافقًا مع طبيعة الموضوع النحوي الذي يقوم على دراسة الجملة ومكوّناتها.

فإذا كانت الكلمة واقعة في صدر الجملة وقامت بوظيفة (المبتدأ) فإنّ هذا المنهج يقتضي أن نحدد الخبر، الذي يكمل الجملة، ومثل ذلك (الفعل) الذي يقتضي تحديد الفاعل حتّى تتم الجملة، ويلزم في هذا المنهج النظر في مكمّلات الجملة الأخرى، وهكذا تتحقق في ظل هذا الاتجاه في ترتيب الموضوعات النحوية دراسة الجملة دراسة كاملة في صعيد واحد.[٢]

كتاب سيبويه:

تباينت آراءُ الدارسين والمستعرضين لكتاب سيبويه فيما يتعلق بترتيب أبوابه، فذهب قسمٌ منهم إلى أنّ الكتاب ذو منهجٍ مُحكَمٍ ودقيق في ترتيب أبوابه، وذهب فريق آخر إلى أنّه مضطرب التّرتيب مختلّ المنهج، وإزاء تباين هذه الآراء وتعدّدها عمدنا إلى عرضٍ موجزٍ وسريعٍ لأبرز الآراء التي تبناها كلا الفريقين متجاوزًا داعيَ الإطالة والتكرار لِما قِيل، ولذا فإنّ الكلام على ترتيب الأبواب في كتاب سيبويه سيكون على محورين:

الأول . النافون وجود منهجٍ في التّبويب.

الثاني . المثبتون وجود منهج في التبويب.

إنّ الغرض من عرض هذه الآراء أو هذه القراءة في آراء الدارسين هو بيان ما ستقوم عليه هذه الدراسة في المبحث الثاني من هذا الفصل، المتعلق بـ (ترتيب الأبواب النحويّة بين الكتابين).

أولًا . النافون وجود منهج:

ذهب بعض القدماء إلى أن الكتاب ليس له نسقٌ يجري عليه في ذكر أبوابِه؛ إذ جاء مُبتدأً بباب (علم ما الكلم من العربية)، ثم (هذا باب كذا) إلى آخر الكتاب، ليس فيه ترتيب.[٣]

ويرى د. محمد كاظم البكّاء أنّ أوّل من قال بانعدام المنهجية في أبواب كتاب سيبويه من المحدثين هو الدكتور أحمد أحمد بدوي، إذ قال: ((ولا يسير في ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقيّة الدّقيقة، فيُقدّم أبوابًا من حقّها أن تتأخّر، ويؤخِّر أبوابًا من حقّها أن تتقدّم ، ويضع فصولًا في غير موضعها الطبيعي)).[٤]

ولم يُشر الدكتور أحمد بدوي إلى الأبواب التي رأى أنّها في غير موضعها أو أنّها مُتداخلة بعضها مع بعض.

ويرى المرحوم علي النجدي ناصف (ت١٩٨٢م) أنّ ثمّة أبوابًا تبدو في مواضعها غريبة مُقحمة، ولم يستطع أن يجد لها تأويلًا لمقامِها حيث تُقيم؛ إذ تكلّم سيبويه ـ مثلًا ـ على القَسَم وحروفه بين التصغير ونوني التّوكيد، أي في الصّرف، مع أنها بالنحو أشبه كما لا يخفى. وتكلّم في باب مستقل على تركيب واحدٍ من تراكيب الحال، في أثناء الكلام على النعت وتفصيل أبوابه. ولم يجد في التّركيب ولا في كلام سيبويه عنه إشارة بادية تدلّ على أنّ بينه وبين جيرته شيئًا من صلة، أو وجهًا من تشابه.[٥]

ثمّ يعود الدكتور على النّجدي ليجد تعليلات لهذا الخلط في تداخُل الأبواب والموضوعات، ويعزو ذلك إلى أنّ سيبويه ربّما نظر في تعيين مكان (القَسَم) إلى ما بعده وهو (توكيد الفعل) العلة التي تجمع بينهما، فهذا خاطر وتعليل معقول في نظره، والأخذ به أخذٌ صحيح، إلّا أنّ الأخذ به يدعو إلى التّساؤل من جانب آخر؛ إذ قسّم توكيد الفعل على قسمين، وجعل أحدهما في النّحو، وهو حكم الفعل بالقسم، وجعل الآخر في الصرف وهو قضية النونين وأحكام الحرف قبلهما، فهلا جمع التّوكيد كلّه في مكان ومهد له بالقسم على ما يريد، على أنّ هذا الخاطر يقتضي أصلًا أن يجعل القَسَم وحروفه مع النحو لا الصرف، إذ تكلّم في النحو على حُكم الفعل حين يقع في القَسَم، فالأشبه أن يتكلم أولًا على القسم وبِمَ يكون، وربما يرجع هذا الخلط إلى اختلاط أوراق الكتاب من بعد صاحبه، ونتج عنه انتقال بعضها الى غير المكان الذي كانت فيه.[٦]

وفضلًا عن ذلك فإنّ سيبويه يُجري الموضوعات المتشعّبة، ويفرد لكل جزء بابًا، فتكلم على الاستثناء في سبعة عشر بابًا و(إنّ وأنّ) في ثلاثة عشر بابا، والتّرخيم في اثني عشر بابًا وهو تشقيق مبالغ فيه، يدلّ على إهدار الروابط الجامعة، ولا فائدة من ذلك إلّا تشتيت الذهن وتعويق الإحاطة والتّحصيل.[٧]

ويرى الدكتور مازن المبارك أنّ اتهام سيبويه بما يشبه الخلط أو اتهام كتابه باختلاط اوراقه إنّما هو إتّهام مهّد له أصحابه حين عدّوا الكتاب منقسمًا على قسمين، قسم للنحو وقسم للصّرف، وأنّ هناك تداخلًا بين البحوث النحويّة والصرفية والبلاغيّة في كتب النحو القديمة التي تلت الكتاب وتأخّرت عنه[٨]، وفضلًا عن ذلك فإنّ المثال الذي أورده كل من الدكتور حسن عون، والدكتور علي النجدي ناصف ليس بمستقيم، ولا يؤيد ما ذهبا إليه، إذ الحقّ أنّ سيبويه حين ذكر القَسم بين مباحث الصّرف لم يتعرّض للقَسَم على طريقة النّحاة

تعرّضًا أساسيًا، أي أنّه لم يجعل أساس البحث ما يترتّب على حروف القسم من العمل، بل فصّل الكلام في حروف القسم نفسِها، فهو يقول: ((هذا باب حروف الإضافة إلى المحلوف به وسقوطها)).[٩] فهو يتكلّم على هذه الحروف من حيث مادّتها، وذكرها وحذفها، وهذا الكلام على هذه المادة من ذكرٍ وحذفٍ هو ضربٌ من الإعلال وهو من مباحث الصّرف.[١٠]

إنّ المتتبّع لكلام سيبويه في باب القسم يجد خلطًا أو ضربًا بين ما يتّصل بالنحو، وما يتّصل بالصّرف، فهو يقول: ((وللقسم والمُقسم به أدواتٌ في حروف الجرّ، وأكثرها الواو، ثمّ الباء، يدخلان على كُلِّ محلوفٍ به، ثمّ التّاء ولا تدخلُ إلّا في واحدٍ، وذلك قولك: واللهِ لأفعلنّ، وباللهِ لأفعلنَّ، و﴿تَاللهِ لَأَكِيْدَنَّ أَصْنَامَكُمُ﴾، الأنبياء: ٥٧، وقد تقول: تاللهِ! وفيها معنى التّعجّب))[١١]، فهو يتحدّث هنا عن حروف الجر الخاصّة بالقسم، ويرتّبها بحسب الكثرة في الاستعمال، ويشير إلى أنّ منها ما فيه معنى التّعجّب، وهذا من أبواب النحو المعروفة، ثمّ يقول في الباب نفسه: ((وقال بعضُهم: لَهْى أبوكَ، فقلب العينَ وجعل اللام ساكنة، إذ صارت مكان العين، كما كانت العين ساكنة، وتركوا آخر الاسم مفتوحًا كما تركوا آخرَ (أينَ) مفتوحًا، وإنّما فعلوا ذلك به حيثُ غيّروه لكثرته في كلامهم فغيّروا إعرابه كما غيّروه)).[١٢]

ولا شكّ في أنّ قلب حرفٍ مكان حرفٍ هو من أبواب الصّرف المعروفة، ويقول أيضًا: ((هذا باب ما يكون ما المحذوف به عوضا من اللفظ بالواو، وذلك قولك: إي هَا الله ذا، تثبت ألف ها؛ لأنّ الذي بعدها مدغم)).[١٣]

ويعلل الدكتور مازن المبارك هذا المزج بقوله: ((وإذاً فسيبويه يتعرض أساسًا لمباحث صرفية في القسم كالتقاء الساكنين والخروج منه والادغام والذكر والحذف، وهذه مسائل من صميم الصّرف، وأما تناوله في هذا البحث لإعراب المقسم به فقد جاء تبعا لذكر حروف القسم ولم يجئ قصداً فالأساس في الباب هو بحث صيغ حروف القسم وما يتعرض لها من الوجوه الصّرفية والحكمةُ أنْ يوضع الباب حيث وضعه سيبويه لا كما ذهب الأستاذان عون والنجدي في تعليلهما الى الخلط والاختلاط)).[١٤]

فهو يرد على ما ذهب اليه الأستاذان، مستنداً الى وروده في هذا الباب من مباحث شأنها أن توضع فيما وضعت فيه.

ويصرح الدكتور حسن عون بأنّ منهج سيبويه أصابه الاختلال والاضطراب في إطاره العام في نظر المحدثين حينما وجدوا في القسم الخاص بالصّرف ومسائلهِ بعض القضايا النحوية التي كان ينبغي أن توضع في القسم الأول، أي القسم الخاص بالنحو، وذلك مثل باب القسم وباب الممنوع من الصّرف إذ إن هذين البابين مدروسان ضمن أبواب النحو في المؤلفات النحوية التي جاءت بعد سيبويه وهذا من أبرز دواعي النقد والتجريح للذين تعرضوا للبحث في منهج سيبويه.[١٥]

ثم يلتمس الدكتور حسن عون العذر ويجد المُسوّغ لسيبويه في صنيعه هذا إنْ كان من صنيعهِ ولم يكن من عمل النساخ بأن الممنوع من الصرف يقوم على صيغ خاصة تكثر مغايرتها للصيغ اللغوية الكثيرة المألوفة، ما يجعلها تخضع في اعرابها وتنظيمها الشكلي لنظام جديد وتخرج على قاعدة أمثالها من الصيغ المألوفة فهناك الاسماء الأجنبية التي لا نظير لها في العربية، وهناك الاسماء التي جيء بها على وزن الأفعال فأشكل أمرها لدى الدارس، وهناك الاسماء المعدولة عن صيغها المألوفة فكوّنت طائفة غريبة عن المألوف في أصلها، وهناك أسماء طالت بشكل غير معهود في اللغة العربية فأصبحت لا تحتمل الكسر لثقله مع طول هذه الأسماء، وعلى هذا فإنّ الممنوع من الصّرف يقدم صيغًا تغاير ما هو مألوف في العربية مما جعل الجانب النحوي في هذا الباب لا يكاد يرى، نظراً إلى زحمة هذه الصيغ وما اعتراها من غرابة وتغيير.[١٦]

ويبدو من هذا أن الأسماء الممنوعة من الصّرف همّها الأكبر مُنْصَرفٌ الى التغيير المتصل بصيغها، وهذا يقرّبها جدّاً من العمل الصّرفي أو البحث الصّرفي الذي يهتم أساساً بالصيغ المختلفة وما يطرأ عليها من تغيير، وهذا يجعل ظاهرة الإعراب وتنظيم الشكل امراً ثانوياً.[١٧]

وقد ردّ الدكتور صاحب جعفر أبو جناح هذا الالتماس على الرغم من كونه وجيهاً وذكياً بأنه لا ضرورة له أساساً؛ لأن هذا الصنيع ليس من عمل سيبويه[١٨]، في حين يرى الدكتور حسن عون أن هذا الصنيع من صاحب الكتاب يُعدّ لفتة واعية ذكية لم يدركها ولم ينتبه عليها أولئك الذين جاؤوا من بعده.[١٩]

وعلى الرغم من حيرة الدكتور حسن عون في باب القسم وادخاله في باب الصّرف فأنه لا يجد مسوّغًا لذلك سوى أمرين: أحدهما أنه قد حُشِر حشراً بوساطة من تصدوا لتنظيم

الكتاب بعد سيبويه لأدنى ملابسة، ولهذا نظير في عدد من الكتب القديمة حين قام تلاميذ المؤلف أو الحريصون على حفظ آثاره أن تكون هذه الآثار قد وضعت وضعاً نهائياً تحت إشراف. والآخر: هو نظرة الناس في ذلك الزمان الى ما يكون مشتركاً بين النحو والصرف.[٢٠]

وقد وضّح الدكتور صاحب جعفر أبو جناح وجهة نظره في هذا اللبس وهو إنّ الحديث عن القسم متصل بما بعدهُ من حديث عن توكيد الفعل بنوني التوكيد الخفيفة والثقيلة وسيبويه يقول والحلف توكيد. هذا من وجه ومن وجه آخر فإن الحديث عن هذا الباب أيضاً فيه شطر من الحديث عن صيغ القسم وما يعتريها من تغيير[٢١]، وهذا ما ذكره مازن المبارك آنفاً.[٢٢]

وأوّل ما يطالعنا رأي الدكتور حسن عَون فيما يتّصل بمنهج سيبويه في تبويب أبواب كتابه في قوله: ((وبعد: فعلى ضوء ما تقدّم، ورغمَ ما قِيلَ عن اضطراب المنهج لدى سيبويه أو انعدامه، واعتمادًا على قراءتنا المُتأنّية لهذا الكتاب من خلال ما يزيد على خمسة عشر عامًا، نقرّر في طمأنينة أنّ سيبويه كان مُتمثّلًا لما يصنعه في هذا الكتاب، واعيًا لِما يكتُبُهُ فيه، مخطّطًا لقضايا الدّرس النحوي تخطيطًا يكشفُ عن رؤيةٍ واضحةٍ، وينبئ عن إدراكٍ وإلمامٍ لصورة الموضوع الذي وقف نفسه لأجله من ناحية الشّكل، ومن ناحية المضمون، بالرّغم من سعة المادة التي كانت بين يديهِ وامتداد أبعادها)).[٢٣]، وأضاف قائلًا: ((ويَدهشُ القارئ حقًّا لهذا اللغويّ العبقري في تلك الحقبة المبكرة بالنسبة للتأليف اللغوي أمام تبويبه وتفصيله وتصنيفه لهذا الحشد الهائل من المسائل النحويّة واللغويّة ومن القضايا المتعددة، المترامية، المتشابكة؛ هذه القضايا وتلك المسائل التي كانت كفيلة بأن تُغرِق من يتصدّى لبحثها في بحر متلاطم، أو أن تهوي به في دوامةٍ ليس لها من قرار)).[٢٤]

وعلى الرّغم من الاختلاط الذي التمسهُ في تداخُلِ باب القَسَم في مباحث الصّرف، إلّا أنّه يجدُ في الكتاب منهجًا بارزًا في ترتيب أبوابه وموضوعاته، خصوصًا مع غزارة المادة اللغويّة التي جمعها سيبويه، فهو لم يترك شيئًا من كلام العرب ولكنّه رتّبه وبوّبه فلا ضيرَ إذا تداخل بابٌ أو بابان . إن كان ذاك حاصلًا . مع بعضها، فما رتّبه وجمعه يغفر لهُ كلّ نقصٍ أو هفوة.

ويرى المرحوم الدكتور عبد الرّحمن السّيد أنّ سيبويه كان يفصلُ بين أجزاء الموضوع الواحد بما ليس منه.[٢٥]

إنّ النظر المجرّد في ثبت الكتاب، يثبت أنّهُ ليس هناك في ذهن صاحبه خطّة واضحة يسير عليها، هذا ما يراه أستاذنا الجليل الدكتور فاضل صالح السامرائي، ثمّ يُنكر على المرحوم علي النّجدي اِلتماسه العذر لسيبويه، ذلك الخلط إلى اختلاط أوراق الكتاب من بعد صاحبه، ويرى أنّ هذا العذر غير مقبول؛ لأنّ الخلط لم يكن في التّنسيق والتّرتيب حسب، بل تعدّاه ليشمل الأبواب التي يصفها ليبحث تحتها موضوعًا نحويًا، فهو حينما يضعُ عُنوانًا لباب ما، فهذا لا يعني أنّه سيقصر البحث على هذا الباب، بل يبحث ضمنه مواضيع متفرّقة منها ما يخصّ الباب، ومنها ما هو خارج عنه ولا يمتّ له بأي صلة.[٢٦]

ثمّ يُورد نصًا للمرحوم مهدي المخزومي يتّخذه مسوّغًا لذلك الخلط والاضطراب وهو قوله: ((ولا عجب فإنّ التأليف كان في بداية نشوئه ولم تكن للمؤلّفين آنذاك القدرة على التنظيم ودقّة التبويب)).[٢٧]

إنّ هذا النّص قد جانبَ الدقة والصواب، وحسبي أنْ أردّ عليه بما ذكرته الدكتورة خديجة عبد الرزاق الحديثي التي ترى أن سيبويه ((رتّب الكتاب ترتيبًا واضحًا))[٢٨]، كما سيأتي بيانه في الفقرة التالية.

ب. القائلون بوجود منهج:

على النّقيض من تلك الآراء التي عُرضت وهي النافية لوجود منهج في تبويب كتاب سيبويه، أو أنّ منهجه أصابه الاضطراب، تطالعُنا كوكبةٌ من الدارسين الذين أثبتوا عكس ما ذهب إليه الفريق الأوّل.

يقول المرحوم الدكتور محمد الطّنطاوي: ((والكِتابُ مجهودٌ علميّ يدلُّ على دقّة سيبويه في الإلمام بالقواعد النّحويّة؛ فهو صورة لجهوده وجهود مَن سبقه من العلماء، إلّا أنّ شخصيته فيه واضحة قويّة، وقد ظهرت هذه الشخصيّة في تركيب الكتاب وتبويبه، وحُسن تعليل القواعد، وجودة التّرجيح عند الاختلاف واستخراج الفروع من القياس الذي زخر به الكتاب...)).[٢٩]

ويرى المرحوم الدكتور شوقي ضيف، أنّه على الرغم من ملاحظاته التي سجلها التي منها أنّ سيبويه لم يضع لهُ اسمًا يفردهُ به، أو أنّه يحوي استطرادًا في بعض الأبواب

النحويّة، وأنّ مردّ ذلك إلى وفاته العاجلة، فإن للكِتاب منهجًا سديدًا في التّصنيف، فقد نسّق سيبويه أبوابه وأحكمها إحكامًا دقيقًا، خصوصًا وأنّه أوّل كتابٍ جامع لقواعد النحو والصّرف.[٣٠]

ويأتي كلام الدكتورة خديجة الحديثي في كتابها (أبنية الصرف في كتاب سيبويه)، من مسألة التبويب في كتاب سيبويه فأجد لها رأيًا تقول فيه: ((ولا يسير في ترتيب أبوابه وفصوله ترتيبًا منطقيًّا سليمًا، فهو يقدّم أبوابًا من حقّها ان تتأخّر، ويؤخّر أبوابًا من حقّها أن تتقدّم، ويضعُ فصولًا في غير موضعها، ...، ولا يذكُرُ مسائل الباب الواحد متّصلةً متتابعة، بل يذكر بعضها في موضع، وبعضَها الآخر في موضعٍ ثانٍ . بعد أن يفصل بينها بأبوابٍ غريبة عنها . وفي هذه تجزئة للموضوع الواحد، وتفرقة لمسائلهِ في مواضعَ كثيرةٍ)).[٣١]

ولكنّها عدلت عن رأيها هذا بعد ردحٍ من الزمن، حينما أعادت دراسة كتاب سيبويه مرّة أخرى؛ إذ رأتْ أنّ أبوابه مرتّبةً ترتيبًا منطقيًّا؛ إذ تقول: ((وهكذا نرى أنّ سيبويه قد رتّب الكتاب ترتيبًا واضحًا وسار فيه على منهج معيّن منطقيٍ متسلسل، ولولا بعض التّداخل في بحوث النّحو لاستطعنا أنْ نقول إنّ منهجه كان ولا يزال خير منهج يمكن أن يسير عليه التأليف في هذا العلم الواسع، مع أنّه من أوائل الكتب المؤلّفة ولم يجر على كتاب سبقه في الترتيب والموضوعات والمنهج فهو أول كتاب وصل الينا في هذا العلم يشهد ببراعة مؤلفه وسعة اطلاعه وإدراكه للموضوعات وتسلسلها)).[٣٢]

وترى أيضاً أنّ منهج سيبويه في النحو يختلف عن الطريقة التي سار عليها المتأخرون، إلا إنه كان منهجاً مستقيماً وواضحاً الى حدٍ ما.[٣٣]

ففي كلامها دليل على وعي سيبويه وإدراكه للموضوعات التي وضعها في كتابه، ومن ذلك يتضح أن اختلاط الأبواب التي وردت في الكتاب التي أشار اليها الباحثون وهي ما تتمثل بموضوعات القسم، والممنوع من الصرف كانت من وضع سيبويه وأنه وضعها على قصد ودراية، وإدراكاً منه لعلاقة تلك الأبواب بعضها ببعض، وفي هــذا درءٌ لما قيل من أن هذا الخلط ناجم عن عمل النّساخ الذين تصدوا للكتاب فيما بعد.[٣٤]

وفي كلام الدكتورة خديجة الحديثي ردٌّ على ما قيل من أنَّ هذا الخلط ناتج من عدم قدرة النحاة العرب على التأليف والتنظيم والتبويب، وهذا ما تبناه الدكتور مهدي المخزومي وقد مرَّ ذكره آنفاً.

وترى أيضًا أن ترتيب أبواب الكتاب يختلف عمّا نجده اليوم في كتب المتأخرين في دراسة النحو والصرف[٣٥]، وكان من الأوْلى القول بأنَّ على النحاة المتأخرين السَّير على منهج سيبويه ما دام منهجه غايةً في الدقة والإحكام في ترتيبه.

ويطالعنا رأي الدكتور محمد كاظم البكاء في هذا الصدد الذي أيّد فيه رأي الدكتورة خديجة الحديثي السابق؛ إذ يقول: ((وقد تفرد في ترتيب أبوابه وتنسيق مباحثه على وجه لا نجده في مؤلفات الآخرين)).[٣٦]

ثم يقف الدكتور محمد كاظم البكاء موقفاً واضحاً وصريحاً من مسألة ترتيب أبواب الكتاب، ويؤكد أنه اِتبع منهجاً منظماً في الترتيب، ويدفع عن الكتاب الاضطراب في ترتيب أبوابه الذي ردّده أغلب الباحثين، يقول ((أعِدت كتابة أبواب الكتاب باباً باباً وهي تصف الأساليب وتُعيد توزيع الأبواب النحوية عليها فإذا الكتاب في القسم الثاني من البحث في تصنيف منطقي يتضح منهج سيبويه في التقويم النحوي لوجوه تأليف الكلام فحمدت الله تعالى أن تيسر لـي دفع الشبهة عـن اضطراب أبواب الكتاب التي رددها أغلب الباحثين)).[٣٧]

وبصدد القول في ترتيب أبواب الكتاب ومنهج سيبويه في ذلك نقف عند دراسة قيّمة ومعّمقة جاءت أقوى برهاناً على دقة سيبويه في ترتيب أبواب كتابه وانسجام بعضها مع بعض، وهي دراسة د. حسن عبد الغني الأسدي، إذ عقد في دراسته سلسلة من الفقرات المتعلقة بمنهج سيبويه في التدوين النحوي [٣٨]، وخلص في نهايتها الى ملاحظة قال فيها: ((وبعد فلقد سعينا في ملاحظة أبواب الكتاب وطريقة ترتيبها وعرضها والمنحى الذي ينحوه سيبويه في إيراد الأمثلة وتعليقاته عنها الى أن ذهب بنا الى القول بأنّ سيبويه كان قد أخرج كتابه على وفق منهجية منضبطة هي غاية في الدقة)).[٣٩]

ويلاحظ أن جانباً من الكتاب قد أساءَ قسمٌ كبيرٌ من النحويين فهمه قديماً وحديثاً، وهو الجانب المتصل بخطة الكتاب في إيراد الأبواب النحوية، وأن الدارسين قد وصفوا موضوعات الكتاب بالتداخل وأن أبواب الموضوع الواحد مبعثرة هنا وهناك. وقد حاول المحدثون تبني منهجًا عامًا أرادوا منه مخرجاً لسيبويه من ذلك التداخل، وما تلك المحاولة الا تأثرٌ بنظرة متأخرة عن زمن تأليف الكتاب، وقد بقيت تلك النظرة حتى في المحاولات المعاصرة لإعادة تقويم منهج الكتاب.[٤٠]

وعلى الرّغم من هذا التداخل في توزيع المادة على أكثر من باب، قد تبدو للدارس مقحمة في غير مكانها، إلّا أنّها في مكانها المُناسب، وحسبَ ما أراد لها سيبويه (رحمه الله). وهكذا يجري سيبويه (رحمه الله) في أبواب الكتاب يبني بعضها على بعضٍ على وجهٍ لو جُعِلَ هذا الباب في موضع الباب الآخر لإختلّ نظام الأبواب.[٤١]

وفضلًا عن ذلك فـ ((إنّ كتاب سيبويه . وهو أوّل كتاب وصل إلينا . سجّل سبقًا منهجيًّا في تبويبه يُعدُّ مفخرةً في التنظيم، ولا يُقلّلُ من قيمة هذا التّنظيم وجود هِنات في هذا المنهج، وذلك لأنّه الأوّل في مَيدانه، وهذا وحده عُذرٌ لكلّ هفوة أو نقص في المنهج...)).[٤٢]

وخُلاصة القول إنّ الحُكم على كتاب سيبويه بوجود منهج فيه أو خُلوّه منه، ينبغي أن لا يُعتَمدَ فيه على مَن لم يُفردوا مؤلّفاتهم لدراسة منهج الكِتاب بصفةٍ خاصّة[٤٣]، بل جاء كلامهم وحكمهم من دراسة جزئية كدراسة ظاهرةٍ أو بابٍ نحوي، ومثل هذه الدراسات لا يمكن من خلالها إصدار حُكم قاطعٍ على الكِتاب، ولا يمكن البتّ في حُكمٍ قطعي، بل من الإنصاف الاعتماد على إصدار مثل هذه الأحكام القطعية على أولئك الباحثين الذين أفنوا جُلّ وقتهم وهم يتابعون منهجَ سيبويه، وأفردوا له مؤلّفاتٍ خاصّة بكتابه، فإذا ما تمّ الاعتماد على هذه الدراسات فإنّه يمكن حينئذ الاطمئنان إلى ما يصدر عنها من أحكام.[٤٤]

ومن خلال عرض آراء المحدثين في مسألة تبويب الكتاب، لُوحِظَ أنّ ممّن عُنُوا بدراسته أنّهم متفقون على وجود منهجٍ دقيق فيه، ولو طُبّق هذا المنهج على دارسي النحو لانتفت صعوباته، إذ إنّ ما يُعانيه الطلبة في عدم استيعاب قواعد النّحو يرجع إلى المنهج الذي ينتهجونه في دراساتهم، وهو منهج النحاة المتأخرين، الذي يتّسم بتخطيط يختلف عن منهج كتاب سيبويه[٤٥].

وبعد هذا العرض لآراء الباحثين المُنكرُ منهم والمُثبت لوجود منهج في ترتيب الأبواب في الكتاب، فإنّ الباحثين يقفان إلى جانب القائلين بوجود منهج مُحكمٍ في الترتيب وذلك لأسبابٍ منها:

١. إنّ من قال بوجود الخلط في الترتيب يُلاحظ عليهم عدم الثبات في أقوالهم وآرائهم، فلم يلبثوا أن عادوا يلتمسون العذر لسيبويه والدّفاع عنه، ونذكر ما قاله المرحوم علي النّجدي إذ قال : ((على أنّ ثمّة أبوابًا تبدو في مواضعها غريبة مقحمة ...))[٤٦]؛ نجده في موضع آخر يرد على من ادّعى أن ليس في الكتاب نسق يجري عليه في ذكر

أبوابه، بأنّ مثل هذا الحُكم ناتج عن النظرة الأولى للكتاب والعاجلة، ويحسُن على كلّ حال الرجوع الى مباحث الفهارس في تفريقها وتفصيل الكلام عليها، نتأمّلها ونجيل النظر فيها، ليكون حُكمُنا على بيّنة وعن اقتناع، وعودًا على بدء نجده يقول في موضعٍ آخر أنّ سيبويه لم يسلم من المآخذ في بعض ما درس وبعض ما نقل، وهيهات أن يسلم منها سالم، ولا سيّما في محلٍّ ضخمٍ كهذا، كثير الشّعب، متعدّد الأعمال والأسباب، فالعصمة لله تعالى وحده، ومن يأمن الخطأ والجهل، فربّما لا يأمن الغفلة أو النّسيان.[٤٧]

٢. إنّ الأبواب التي أثارت حفيظة الباحثين، لا تعدو أن تكون أبوابًا معدودة كالقسم والممنوع من الصرف، وهي لا تُشكِّل خرقًا واضحًا لترتيب الأبواب ونسقها على سعة أبواب الكتاب وضخامتها، فينبغي أن لا تعمّم القلّة المُختلّة على الكثرة المنتظمة.

٣. الردود التي ردّ بها القائلون بوجود منهج في الكتاب على القائلين بوجود الخلط، أثبتت أن الخلط في رؤيتهم وَهْمٌ وليس كما زعموا، بل أنّ تلك الأبواب جاءت في مكانها، إذ إنّ الذي تقرّر عند الباحثين أنّها من أبواب الصّرف، قد يكون لسيبويه رأيٌ آخر في هذه التّسمية، فلم يكن التّصريف عنده إلا أربعة أنواعٍ هي: الأبنية، والإعلال، والإبدال والقياس اللغوي والإدغام، وهذه الأمور الأربعة تسلسلت في كتابه من حيث الأبواب والمباحث ولم تتفرق. ومعنى هذا أنّ سيبويه كان يسير على منهجٍ واحد، وأنّ ما نحمّله إيّاه من أنّ بعض المباحث الأخرى قد تفرّقت، إنّما هو تطبيقٌ لمنهجٍ ارتسم متأخّرًا، ولعلّ هذا المنهج لم يكن في ذهنه.[٤٨]

٤. إنّ باب القسم الذي أوردهُ بعض الباحثين من أنه واقعٌ في أبواب الصّرف، جاء فاصلًا بين باب التّصغير وباب النونين الثقيلة والخفيفة، ولعلّ العلاقة هنا معنويّة، إذ إنّ القسم من متطلباته أحيانًا توكيد الفعل، لذا جاء تمهيدًا للتوكيد، والنون الثقيلة والخفيفة باب يتقاسمه النّحو والصّرف، فقد جمعه سيبويه معًا ولم يشطّر أجزاءه، ولعلّ علاقة التغيير ما زالت سارية هنا؛ إذ إنّ إلحاق نون التّوكيد الثقيلة أو الخفيفة هو تغيير في الفعل، سواء أكان هذا التغيير أعرابيًا أم صرفيًا.[٤٩]

النتائج

خلص البحث إلى جملة نتائج أهمها:

١. إنّ سيبويه بنى كتابه على نظرية العامل، إذ ابتدأ كتابه بالحديث عن الأفعال، ثم أردفها بكل ما يتعلّق بها من مسمّيات تُعدُّ من متمّمات الجملة، كالفاعل والمفعول والتمييز والحال والمنصوبات الأخرى.

٢. كان سيبويه يكثر من الشواهد الفصيحة القرآنية، وما سمعه من العرب الفصحاء ـ شعرًا ونثرًا ـ فضلًا عن الأمثلة التعليمية المصنوعة من أجل توضيح القاعدة النحوية التي بحث عنها.

٣. لقد جاءت أبواب كتاب سيبويه مترابطة بعضها ببعض، بحيث لا يمكن فصل باب عن نظائره، أو تقديم بابٍ على آخر.

٤. إنّ أكثر الدارسين ذهبوا إلى أنّ لسيبويه منهجًا خاصًا به في التأليف قصده واتّكأ عليه في بناء لبنات النحو العربي.

٥. ضرورة أن تسير المؤلّفات النحوية على منهج سيبويه في التبويب، وأن يتّخذه الطلبة المصدر الأول في الدراسة والتدريس؛ لأنّه ينبني على نظام الجملة.

Abstract

Methodology of Sibawayh (D. 180 AH)
In the grammatical Topics of "Al- Kitaab"
Key Word: Methodology of Sibawayh

Assis.Prof. PhD. Ghada Ghazi Abdul Majeed **Nofal Ismail Saleh**
Diyala University - Faculty of Education Sciences – Department

The following study tries to review the approach Sibawayh used in organizing his book. After reviewing the opinions of specialists in his methodology in organizing, it was discovered that they are divided into two groups. The first group proves with evidence that Sibaweih has an intended approach in organizing grammatical topics while the second group claims that his methodology in organizing is vague and overlapped. The second group neglects any methodology used in "Al Kitaab". The researchers concluded that the opinion of the first group is the acceptable one according to the evidence adopted by the study.

الهوامش

(١) ينظر: مناهج التأليف النحوي عرض ومناقشة، د. غانم قدوري الحمد، بحث منشور في مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع٤٤، ٢٠٠٣: ٤٥.

(٢) ينظر: مناهج التأليف النحوي عرض ومناقشة: ٥٠.

(٣) يُنظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١٤٢٦/٢-١٤٢٧.

(٤) ينظر: منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي: ٢١.

(٥) ينظر: سيبويه إمام النحاة: ١٨٥.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٤.

(٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٤.

(٨) ينظر: الرّماني النحوي: ١١٤.

(٩) الكتاب: ٤٩٦/٣.

(١٠) ينظر: الرماني النحوي: ١١٤-١١٥ (الحاشية).

(١١) الكتاب: ٤٩٦/٣.

(١٢) المصدر نفسه: ٤٩٨/٣.

(١٣) المصدر نفسه: ٤٩٩/٣.

(١٤) الرماني النحوي: ١١٥ (الحاشية).

(١٥) ينظر: تطور الدرس النحوي: ٣٤.

(١٦) ينظر: المصدر نفسه: ٣٥-٣٦.

(١٧) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٨) ينظر: من اعلام البصرة : ٩٢.

(١٩) ينظر: تطور الدرس النحوي: ٣٦.

(٢٠) ينظر: المصدر نفسه:٣٧.

(٢١) ينظر: من أعلام البصرة:٩٢-٩٣.

(٢٢) ينظر: الرّماني النّحوي:١١٥.

(٢٣) تطور الدّرس النحوي: ٤١.

(٢٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢٥) ينظر: مدرسة البصرة النّحوية: ٥٤٠، ومسائل خلافيّة بين الخليل وسيبويه: ٣٠، وتاريخ النّحو العربي في المشرق والمغرب:١٨٣ – ١٨٤، ومصادر البحث اللغوي في الأصوات والصرف والنحو والمعجم وفقه اللغة مع نماذج شارحه: ١٢٩-١٣٠.

(٢٦) ينظر: الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري: ٣٢- ٣٣.

(٢٧) الخليل بن أحمد الفراهيدي: ٢٢٢.

(٢٨) سيبويه حياته وكتابه: ٩٥.

(٢٩) نشأة النّحو وتاريخ أشهر النحاة: ٨٢ – ٨٣.

(٣٠) ينظر: المدارس النحوية: ٦٠.

(٣١) أبنية الصرف في كتاب سيبويه: ٦٧.

(٣٢) سيبويه حياته وكتابه :٩٥.

(٣٣) ينظر: المصدر نفسه :٩٠.

(٣٤) ذهب الى هذا الرأي كل من د. علي النجدي في كتابه سيبويه إمام النحاة : ود. صاحب جعفر أبو جناح في كتابه من أعلام البصرة : ٩٢.

(٣٥) ينظر: أبنية الصرف في كتاب سيبويه: ٣٣.

(٣٦) منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي :١٩.

(٣٧) منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي:٢٢.

(٣٨) ينظر: ما يتصل بهذا الموضع: مفهوم الجملة عند سيبويه: ٤٠-٦٩.

(٣٩) مفهوم الجملة عند سيبويه: ٦٧.

(٤٠) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٤.

(٤١) ينظر: منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي: ٥٩.

(٤٢) مناهج التأليف النحوي من سيبويه إلى ابن هشام: ٢٠٢.

(٤٣) ينظر: كتاب سيبويه في الدراسات النحوية الحديثة في العراق:٣٢.(أطروحة دكتوراه)

(٤٤) المقصود بها دراسة د. خديجة الحديثي، سيبويه حياته وكتابه، ودراسات د. محمد كاظم البكّاء، في منهج سيبويه في التقويم النحوي، والكتاب تصنيف منهجي وتحقيق علمي، ودراسة د. كريم حسين ناصح، مناهج التأليف النحوي من سيبويه إلى إين هشام، ودراسة د. حسن الأسدي، مفهوم الجملة عند سيبويه، وغيرها.

(٤٥) ينظر: الكتاب تصنيف منهجي وتحقيق علمي:٢/١ (المقدمة).

(٤٦) سيبويه إمام النحاة: ١٨٤.

(٤٧) ينظر: المصدر نفسه:١٦٦.

(٤٨) ينظر: الترتيب الصرفي في المؤلفات النحوية والصرفية الى اواخر القرن العاشر الهجري:٩، د. مهدي بن علي بن مهدي آل ملحان القرني، الاستاذ المساعد بكلية المعلمين في بيشة، بحث منشور على الشبكة العالمية.

(٤٩) ينظر: المصدر نفسه: ١٠.

المصادر والمراجع

- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة عبد الرزاق الحديثي، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٥م.
- الأصول في النحو، ابن السّراج، أبو بكر بن ابراهيم سهل النحوي(ت ٣١٦هـ)، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
- تاريخ النحو في المشرق والمغرب، د. محمد المختار ولد أباه، دار الكتب، العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- تطور الدرس النحوي، د. حسن عون، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، مصر، (د.ط)، ١٩٧٠م.
- الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، د. فاضل صالح السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد، (د.ط)، ١٩٧٠م.
- الخليل بن أحمد الفراهيديّ أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزوميّ (ت١٩٦٣م)، مطبعة الزهراء، بغداد، (د.ط)، ١٩٧٠م.
- الرّماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، د. مازن المبارك، دمشق، ط١، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.
- سيبويه إمام النحاة، د. علي النجدي ناصف، عالم الكتب، ط٢، (د.ت).
- سيبويه حياته وكتابه، د. خديجة عبد الرزاق الحديثي، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، (د.ط)، ١٩٧٤م،
- فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، د. محمد عبد الخالق عضيمة، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٧٥م.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧هـ)، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، (د.ط)، (د.ت).
- مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، د. عبد الرحمن محمد السيد، منشورات جامعة البصرة، مطابع سجل العرب، ط١، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.

- مسائل خلافية بين الخليل وسيبويه، د. فخر صالح سليمان قدارة، دار الأمل، الأردن، ط١، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- مصادر البحث اللغوي في الأصوات والصرف والنحو والمعجم وفقه اللغة مع نماذج شارحه د. محمد حسن عبد العزيز، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
- مفهوم الجملة عند سيبويه، د. حسن عبد الغني الأسدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- من أعلام البصرة، سيبويه، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، د. صاحب جعفر أبو جناح، منشورات وزارة الإعلام، العراق، (د.ط)، ١٩٧٤م.
- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، د. محمد كاظم البكاء، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، الشيخ محمد طنطاوي، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٧٣م.
- الترتيب الصرفي في المؤلّفات النحوية والصرفية إلى أواخر القرن العاشر الهجري، د. مهدي بن علي بن مهدي آل ملحان القرني، بحث منشور على شبكة الأنترنيت.